

المناسبة المقامية في دلائل الإعجاز للجرجاني
The Occasional Occasion Al-Jarjani's Dalilat al-Ijazal

أ.محمد ايت بوناصر

جامعة القاضي عياض - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ تحكيم البحث:

07/05/2025

تاريخ استلام البحث:

30/04/2025

الملخص

تروم الورقة البحثية الموسومة بالمناسبة المقامية في كتاب دلائل الإعجاز للجرجاني إلى إبراز تحول وانتقال الجرجاني من غرابة الأسرار إلى المناسبة النظمية في الدلائل، ووضع المنطلقات الكبرى؛ وتكمن هاهنا العملية الانتقالية من كتاب الأسرار إلى الدلائل في تموضع الغرض العام الذي قصد من خلال تأليف الكتابين في البحث عن بلاغة تشمل النص كله، ليس جزءاً منه؛ وتحاول البرهنة على إعجاز النص القرآني في مقاربة لغوية نحوية له. هذه الاعتبارات ضمت إلى الأسرار مادة معرفية جديدة وهي النظم. وتتبنى المداخلة على منهج وصفي تحليلي تفسيري قوامه أساليب الانتقال من منجز الأسرار إلى الدلائل.

كلمات مفتاحية: المناسبة المقامية الجرجاني، دلائل الإعجاز، التداول، العدول.

Abstract

The paper aims to highlight the transformation and transition of al-Jarjani from the strangeness of al-Asrar to the systemic occasion in the Dalilat al-Ijaz, and to set the major premises, and here the transition from al-Asrar to Dalilat lies in the positioning of the general purpose that was intended through the writing of the two books in the search for a rhetoric that includes the whole text, not part of it, and tries to prove the miracle of the Qur'anic text in a linguistic and grammatical approach to it. For all these considerations, a new cognitive material, namely systems, was added to al-Asrar. The intervention is based on a descriptive, analytical and inductive approach, which is based on the interpretation of the .methods of transition from the achievement of the secrets to the evidences

Keywords: Al-Jarjani – Dalilat Al-Ijaz – Circulation – Adwal.

المقدمة

لا ينأى البحث البلاغي النقدي عند عبد القاهر الجرجاني عن محاولات مستمرة ومتواصلة في ربط السابق باللاحق، وإيجاد النسق البلاغي الذي لأجله كد في البحث واجتهد في الإصابة ورام تحصيل المادة المعرفية السليمة بدون سبق، ذلك أن كتابه "أسرار البلاغة" مداره على التشبيه والاستعارة والتمثيل، أما في هذا المنجز؛ فقد أخذ على نفسه الحديث والرد والنقاش في موضوعي الأخذ والسرقعة، وذلك في فصلين متكاملين من كتابه، وأطال حتى قدم لقضية الصدق والكذب في الشعر تقديمًا يبعد الاستعارة من كونها قليلة الحضور في الخطاب الإعجازي في القرآن الكريم، وكثيرة التواجد في الخطاب الشعري، منه بدأ يبحث عن إجراءات وأسس تتوخى الإجابة عن أسئلة ذات صلة بمواطن الإعجاز في الكتاب الرباني والقضية في الكتابين واحدة؛ فالجرجاني "بحث في الأسرار عن معايير بلاغة الشعر باعتباره معجزة العرب في البلاغة، لينتهي من تحصيل هذه المعايير إلى تفوق القرآن الكريم"¹. وتكمن هاهنا العملية الانتقالية من كتاب الأسرار إلى الدلائل في تموضع الغرض العام الذي قصد من خلال تأليف الكتابين في البحث عن بلاغة تشمل النص كله، وليس جزءاً منه، وتحاول البرهنة على إعجاز النص القرآني في مقاربة لغوية نحوية له؛ هذه الاعتبارات ضمت إلى الأسرار مادة معرفية جديدة وهي النظم، وقد بلغ القول في هذا أقصاه وانتهى إلى مداره الأمر على كتاب دلائل الإعجاز مراميهِ وغايته (الانتقال من غرابة الأسرار إلى المناسبة النظامية في الدلائل).

إشكالية البحث:

يعالج البحث إشكالية رئيسة تتمثل في سبل تحول الجرجاني بين الأسرار ودلائل الإعجاز، وهي إشكالية هامة نسعى للإجابة عنها، وهي كالتالي: إلى أي حد تمكن من الانتقال من مفهوم الغرابة إلى مفهوم العدول في كتابه دلائل الإعجاز؟

أهمية البحث:

يكتسب البحث أهمية كبيرة باعتباره يهتم بمعالجة قضية كبيرة في الدرس البلاغي والنقدي، ويصب فحواه في استئثار قضية اللفظ والمعنى النقاد والبلاغيين والسيمايين المعاصرين.

منهجية البحث:

يتناول الموضوع أربعة محاور رئيسة تعد مركزاً أساسياً في تناول قضية المناسبة المقامية في أحد المنجزات الكبيرة في الدرس البلاغي والنقدي، وهي كالتالي:

¹ - العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 351.

-
- المحور الاول: كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ومنهجه في عرض القضايا البلاغية والنحوية.
 - المحور الثاني: مزية الكلام عند الجرجاني (المصالحة بين اللفظ والمعنى).
 - المحور الثالث: النظم ومفهومه عند الجرجاني.
 - المحور الرابع: المناسبة التداولية، المقصود والمفهوم ومقتضيات النظم.

المحور الأول: كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ومنهجه في عرض القضايا البلاغية والنحوية

1-1 وصف الكتاب (طبع لأول مرة في 1321 هـ):

في سياق وضع النقاط الكبرى في محلها، سنحاول تحديد أسس ومنطلقات الدلائل، إذ إن التصور الانزياحي الذي عمّ في الأسرار لم يسعف في الوصول إلى المعنى، ومعنى المعنى، ومعان أخرى سيأتي ذكرها لاحقاً، لذلك؛ كان التصور القصدي (المقصدي / التداولي عند العمري)، الواجهة الأولى التي عمل على دراستها والبحث فيها بغية خلق علاقة تبعية بين العوارض الأساسية في الأسرار (الغربة الشعرية، التخيل بين الصدق والكذب، المجاز، الجانب الأخلاقي)، وتعد موضوعات ومباني كتاب الأسرار بما يضمن مشروعية تحليل وتعميق المادة القرآنية بمعايير بلاغية نحوية تناسب مقتضى الحال (مناسبة الكلام لمقصدية المتكلم والمخاطب). وهذا ما رصده الجرجاني في الدلائل.

فصل الجرجاني في الدلائل، بعد المقدمة والمدخل، في بيان فضل العلم والمواضيع ذات الصلة بالرد على المعتزلة في مقالهم عن الإعجاز القرآني، ثم دافع عن الشعر والنحو بطريقة تؤكد صحة منهجية واستراتيجية المؤلف في التسلسل الموضوعي. بعد ذلك؛ انتهى إلى خلاصة شاملة ومضبوطة ابتدأ فيها بملاحظات اللفظ، وأخرى بأحوال النظم ومزايا الكلام "وهذا بابٌ واسعٌ، فإنك تجد متى شئت الرّجلين قد استعملتا كلمات بأعينها، ثم ترى هذا قد قرع السماء، وترى ذاك قد لصق بالحضيض، فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حالٌ لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً²". وبعد وضع تعاريف للصور البلاغية المعروفة، انتقل إلى القول في النظم وتفسيره، واصفا إياه بعبارة دقيقة المعنى وسليمة المبنى، قائلاً: "اعلم أن هاهنا أسراراً ودقائق لا يمكن بيانها إلا بعد أن تقدّم جملة من القول في النظم وفي تفسيره والمراد منه، وأي شيء هو؟ وما محصّوله ومحصّول الفضيلة فيه؟ فينبغي لنا أن نأخذ في ذكره، وبيان أمره، وبيان المزية التي تدعى له من أين تأتيه، وكيف تعرض فيه؟ وما أسباب ذلك وعِلّله؟ وما الموجب له، وقد علمت على إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتقدير قدره والتثني به بذكره وإجماعهم أن لا فصل مع عدمه ولا قدر للكلام إذا هو لم يستقيم له ولو بلغ غرابة معناه ما بلغ³"، هذا التحول من غرابة الأسرار إلى المناسبة النظامية إنما هو انفتاح على إطار مفاهيمي آخر يخدم النص الديني، ويظهر إعجازه بالنظم ومقتضياته، وهذا ما جاء في آخر الكتاب، حيث يتعلق بمسائل تمام النظم واللفظ وأخرى برسائل

² - الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 48.

³ - المصدر نفسه، ص 80.

وتعليقات تروم إزالة الشبهة فيما يصل وثاقه بالفصاحة والبلاغة وإثبات ما به يكون الكلام إفادة للنظم ومناسبته للمقاصد، وهكذا ختم كتابه بمواضيع موجزة من الرسالة الشافية وفصول في الشبهات .

2-1 منهجية الجرجاني في عرض قضايا البلاغية والنحوية في الدلائل:

إن أول ما نشير إليه بصورة مركزة أن البلاغة التي اهتدى إليها الجرجاني بلاغة معنوية بالأساس مرجعيتها أشعرية، تضيفي للمعاني صفة نفسية، لا تغادر المفهوم العقلي لها، وفي هذا السياق العام؛ الغرض من تأليف كتاب الدلائل هو البحث عن بلاغة تبرهن على إعجاز النص القرآني في مقابلة للنص الشعري الذي وجد ضالته في الغرابة الدلالية، وإذا كانت غرابة المعنى مادة الأسرار فهي ليست المعيار الوحيد للبلاغة، وبعبارة أخرى؛ أن هناك معيار آخر جعله الجرجاني مادة الدلائل (النظم) وبحث فيه حتى جعل المزية لا تتأتى دونه.

يستفاد مما سبق؛ أن الإمام الجرجاني بدأ كتابه بما هو عام (ذكر فضل العلم، ثم الدفاع عن الشعر ومذاهبه، وعن إعجازية النص الديني)، وبعده؛ فتح قوله بالفصاحة والبلاغة، على اعتبارها منطلقاً لبيان مزية الكلام ونظمه، منه إلى فصل القول في مشاكلة اللفظ للمعنى وبعض مسائله، ثم فصل القول في مقتضيات النظم، وبين الفينة والأخرى يعود إلى الكلام ومزايده، والرد على من عاداه من المعتزلة ومشايخها. وخلص فيما بعد إلى فصول ملحقة بالكتاب يرجع فيها الكلام إلى الإثبات بدلائل شعرية، وبها خاتمة الكتاب مذيبة بالرسالة الشافية ومسائل نحوية بلاغية تتصل بالاحتجاج على إعجازية القرآن. على هذا النحو؛ أُلّف كتاب الدلائل لمقاصد تتمظهر أولاً في وضع نظرية تستوعب النص بكامله، وتدرسه من كل جوانبه، مبينة المخفي ومفسرة الظاهر، وهذا ما توصل إليه في الأخير، يقول: "ثم إن التوق إلى أن نُقَرَّ الأمور قرارها وتوضع الأشياء مواضعها، والنزاع إلى بيان ما يشكل، وحل ما ينعقد، والكشف عما يخفى، وتلخيص الصفة التي يزداد السامع ثقة بالحجة، واستظهاراً على الشبهة، واستبانة للدليل وتبييناً للسبيل، شيء في سوس العقل، وفي طباع النفس إذا كانت نفساً"⁴، من هنا؛ فالنفس العلمية عند الجرجاني جعلته يسلك طريق البحث والوضع المدلل والمحااجة في سبيل بيان الحق ودحض الباطل، مما استشكل من القضايا، نسجاً وتحبيراً وتخطيطاً، حتى وصل لإقامة المعايير المعول عليها لبلاغة معنوية تتوخى المعنى دراسة وتحليلاً.

⁴ - المصدر، نفسه، ص 34

المحور الثاني: مزية الكلام عند الجرجاني (السعي لمصالحة اللفظ عند الجاحظ)

2-1 قضية اللفظ والمعنى:

من الجلي أن قضية اللفظ والمعنى وثقت الصلة بين مجالين اثنين، هما: البلاغة والنقد، ما دعا العلماء إلى طرح جملة من الآراء النقدية والبلاغية واللغوية أيضًا، وذلك بما يخدم المنهجية السليمة والمعرفة المتكاملة، ولنا في هذا أصل وقول.

2-1-1 اللفظ والمعنى عند الجاحظ:

بعد بحثه المكثف في علم البيان وتأصيل الاصطلاح، أوضح أن البيان عنده ليس بالمعنى المعروف (علم من علوم البلاغة)، بل هو "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محضوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"⁵، ويزيد من الوضاحة والاستيضاح، إذ إن جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى النصفة. "بهذه الرؤية السيمائية الدلالية، تجاوز الجاحظ قصر الفهم والتفسير المحدود إلى المعالم الكبرى للمعنى، والملاحظ على عدد من الباحثين والدارسين أنهم أسأوا فهم هذا التحديد، ولذلك قالوا إن الجاحظ يولي الاهتمام للفظ دون المعنى، والمزية في الكلام عنده إنما في اللفظ دون نظيره، غير أن قراءة الجرجاني لم تخالط ما سبقها أو جاء بعدها، ولذلك خلص به الأمر أن جرت عنده البلاغة مجرى المعنى، وحاول مصالحة الحد عند الجاحظ وهو ما نرمي إلى استيضاحه.

2-1-2 مصالحة اللفظ عند الجاحظ:

قبل نسج خيوط المصالحة اللفظية نورد الكلام عن الباحثين الذين "نصبوا الجاحظ المتوفى سنة 255هـ إماماً لأنصار اللفظيين"، و عبد القاهر الجرجاني إماماً لأنصار المعنويين"⁶، وكلا الموقفين يحتاج إلى بحث وتنقيب ودراسة بالغة المدى في التأمل والتبصر، لئلا يقع الخلط ويساء الفهم والاستعمال، كما حصل لبعضهم حين قرأ قول الجاحظ وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى "والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي (والمدني)، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج (وكثرة الماء)، وفي صحة الطبع وجودة السبك"⁷، فحسبوا منها أن الجاحظ يجعل اللفظ هو الأصل، ودليلهم أن المعاني

⁵ - الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء 1، ص 76

⁶ - مخيمر فؤاد علي، فلسفة عبد القاهر الجرجاني النحوية في دلائل الإعجاز، ط 1983، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 158

⁷ - الجاحظ، أبي عثمان، الحيوان (الكتاب الأول)، الجزء الثالث، ط2، مطبعة مصطفى البابلي وأولاده بمصر، ص 131/132

مطروحة في الطريق غير اللفظ، بالتالي؛ يؤول الكلام إلى اللفظ باعتباره الأصل والمعنى فرع، والحال على غير حاله؛ ذلك أن الجرجاني انتصر للمعنى، وحسب الألفاظ أوعية للمعاني (المعاني هي الثمار الوحيدة المرادة من تركيب الألفاظ)، ويزداد الأمر وضوحاً إذا دققنا الأمر وولجنا وشائج البصر، تبين قول الجاحظ في إشادته بالمعنى: "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"⁸، وهنا كأن الجاحظ أبلغ في الإفادة وفصل في الحاجة، فالمعنى شأنه في ذلك الوصول إلى عمق القلب قبل وصول اللفظ للأذن وعليه تتكل البلاغة؛ ولنعلم أننا لم نرد بما قلناه إزاحة اللفظ وإقامة المعنى، بل إن الفاهم والعاقل يرى أن ما قصده الجاحظ من "والمعاني مطروحة..." أن المعاني العامة يتساوى في فهمها العربي والعجمي وغيرهم، أما المعاني الخاصة هي التي تقام عليها المزية في الكلام.

نستأنف القول، إذن؛ عن الجرجاني ومصالحته للفظ، إذ إن "المزية في المعنى دون اللفظ لذاته ظاهرة، وبخاصة بعد وقوفه على نظم الكلام وفقاً للقانون النحوي، ومع هذا؛ فإن عبد القاهر لم يغفل شأن اللفظ وأهميته بالنسبة لتوجيه المعاني"⁹ والثابت عندنا أن الفهم الثاقب للجرجاني أودى به إلى تفسير مرامي ومساعي الجاحظ من قوله الأول، إذ إن العلم بالمعاني مشترك بين الناس، ففيه ألفاظ تفهم من العامة، وألفاظ أخرى لا تفهم إلا في حضرة الخواص، وذلك كأن تحضر فيها شروط حددها سابقاً (تخير اللفظ، سهولة المخرج، صحة الطبع، كثرة الماء، جودة السبك)، وقد عدنا إليه سالفاً.

شغلت قضية اللفظ والمعنى النقاد والبلاغيين والسيمايين المعاصرين، فقد تناولها الجرجاني، والجاحظ قبله، وابن قتيبة، وابن طباطبا العلوي، وأبو هلال العسكري، وابن رشيق القيرواني، وابن سنان الخفاجي، والآمدي، وبنكراد، والداهي، وغيرهم من مرجعيات وأيديولوجيات مختلفة مذهبية وفكرية، ترتبط أحياناً بالشعر والإبداع وأحياناً أخرى بالنظم وبالخطاب، مما أودى بدارسيها إلى الانقسام إلى قسمين، أحدهما ينتصر للفظ باعتباره أساس الإبداع وتقديمه على المعنى، وآخر ينتصر للمعنى دون اللفظ معتبراً اللفظ خادماً للمعاني "وَعَلَطُ النَّاسِ فِي هَذَا النَّبَابِ كَثِيرٌ. فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي شَأْنِ الْبَلَاغَةِ، إِذَا ذَكَرَ أَنَّ لِلْعَرَبِ الْفَضْلَ وَالْمَزِيَّةَ فِي حُسْنِ النَّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ، وَأَنَّ لَهَا فِي ذَلِكَ شَأوًا لَا يَبْلُغُهُ الدُّخْلَاءُ فِي كَلَامِهِمْ وَالْمَوْلُدُونَ، جَعَلَ يُعَلِّلُ ذَلِكَ بِأَن يَقُولَ: (لَا غَرَوْ، فَإِنَّ اللُّغَةَ لَهَا بِالطَّبْعِ وَلَنَا بِالتَّكَلُّفِ، وَلَنْ يَبْلُغَ الدَّخِيلُ فِي اللُّغَاتِ وَالْأَلْسِنَةِ مَبْلَغَ مَنْ نَشَأَ عَلَيْهَا، وَبُدِيَ مِنْ أَوَّلِ خَلْقِهِ بِهَا، وَأَشْبَاهُهُ هَذَا مِمَّا يُوهِمُ أَنَّ الْمَرِيَّةَ إِنَّمَا هِيَ مِنْ جَانِبِ الْعِلْمِ بِاللُّغَةِ. وَهُوَ خَطَأٌ عَظِيمٌ وَعَلَطٌ مُنْكَرٌ يُفْضِي بِقَائِلِهِ إِلَى رَفْعِ الْإِعْجَازِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَنْبُتُ إِعْجَازٌ حَتَّى تَنْبُتَ مَرَايَا تَفُوقَ عُلُومَ النَّبَشْرِ، وَتَقْصُرُ قُوَى نَظَرِهِمْ عَنْهَا، وَمَعْلُومَاتٌ لَيْسَ فِي مَنِّ أَفْكَارِهِمْ وَخَوَاطِرِهِمْ أَنْ تُفْضِيَ بِهِمْ إِلَيْهَا، وَأَنَّ

⁸ الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء 1، مرجع سابق، ص 115

⁹ مخيمر فؤاد علي، فلسفة عبد القاهر الجرجاني النحوية في دلائل الإعجاز، ط 1983، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 165،

تُطْلِعُهُمْ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ مُحَالٌ فِيمَا كَانَ عِلْمًا بِاللُّغَةِ، لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يَحْدُثَ فِي دَلَائِلِ اللُّغَةِ مَا لَمْ يَتَوَاضَعْ عَلَيْهِ أَهْلُ اللُّغَةِ. وَذَلِكَ مَا لَا يَخْفَى امْتِنَاعُهُ عَلَى عَاقِلٍ¹⁰، وبالجمله؛ فالبحث في قضية اللفظ والمعنى نقطة انطلاق الجرجاني في الدلائل ووصوله إلى النظم، وعليه سيأتي بيان ما للكلام من فضائل ومزايا بين المعنى واللفظ.

-اللفظ والمعنى عند الجاحظ / عند المعتزلة / عند ابن قتيبة.

2-2 مزية الكلام بين الأسرار والدلائل:

2-2-1 مزية الكلام في الأسرار:

أما البدء، فالتأمل وشحذ البصيرة وتأويل اللفظ تأويلاً مع ترتيبه وتنظيمه وفق ما يعلو عليه في معايير البلاغة العربية، ويظهر إما إظهار تألف الألفاظ والمعاني وتوافقهما، وغير ذلك؛ يجنبهما التوافق ويصبحان متنافرين لا رابط بينهما، كذلك السجبة عند الجرجاني في الأسرار في مقدمته، إذ يقول "اعلم أن الكلام هو الذي يُعْطِي الْعُلُومَ مَنَازِلَهَا، وَ يُبَيِّنُ مَرَاتِبَهَا، وَيَكْشِفُ عَنْ صُورِهَا وَيَجْنِي صُنُوفَ ثَمَارِهَا وَيَدُلُّ عَلَى سَرَائِرِهَا وَيُبْرِزُ مَكْنُونِ صَمَائِرِهَا"¹¹، ويقول أيضاً "مُحَصِّلُ الْحَاصِلِ أَنَّ بِالْكَلامِ يُسَبِّرُ أَغْوَارَ اللَّفْظِ وَيُرْقِي إِلَى مَعَانٍ دُونَهَا الظَّاهِرُ" إذ الأساس الذي وَضَعَهُ هُوَ التَّوَصُّلُ إِلَى بَيَانِ أَمْرِ الْمَعَانِي كَيْفَ تَخْتَلِفُ وَتَتَّقُ، وَمِنْ أَيْنَ تَجْتَمِعُ وَتَفْتَرِقُ"¹² ويضيف: "وَأَنَّ مِنَ الْكَلَامِ مَا هُوَ كَمَا هُوَ، شَرِيفٌ فِي جَوْهَرِهِ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيذِ الَّذِي تَخْتَلِفُ فِيهِ الصُّوَرُ وَتَتَعَاقَبُ عَلَيْهِ الصِّنَاعَاتُ وَجُلُّ الْمُعْوَلِ فِي شَرَفِهِ عَلَى دَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ التَّصْوِيرُ قَدْ يَزِيدُ فِي قِيَمَتِهِ وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ."¹³

وهنا الجرجاني يفاضل بين اللفظ والمعنى بداية، بعقل اللفظ بالصور البلاغية "تَتَعَاقَبُ عَلَيْهِ الصِّنَاعَاتُ، وَبِهِ يَتَحَصَّلُ الْمَعْنَى وَيُثَبِّتُ بِأَنَّ الْمَزِيَّةَ فِي الْكَلَامِ إِنَّمَا الْأَسَاسُ فِيهَا الرُّجُوعُ إِلَى مَعْنَى اللَّفْظِ، كَأَنْ يَقُولَ لَكَ فَلَانْ هَذَا لَفْظٌ حَسَنٌ وَآخَرُ مُتَنَاسِقٌ جَمِيلٌ، فَهَذَا لَا يَعْنِي بِالصَّرُورَةِ اللَّفْظَ مُجَرِّدًا، بَلِ الْحُسْنُ وَجُودَةُ السَّبْكِ فِي مَعْنَى اللَّفْظِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى هُوَ مَنْ لَقِيَ تَأْثِيرًا فِي نَفْسِ السَّامِعِ وَجَزَى مَجَزَى مَقَاصِدِهِ، فَضْلًا عَنْ هَذَا، فَهَذَاكَ نَمَطٌ آخَرُ يَعْدُو أَنْ يَرْجِعَ فِيهِ الْمَزِيَّةُ إِلَى اللَّفْظِ، إِذْ يَكُونُ اللَّفْظُ مُتَعَارَفًا عَلَيْهِ بَيْنَ النَّاسِ وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُهُمْ لَهُ وَالْمَعْنَى الْمُعْقَلُ مِنْهُ مَعْنَى وَاحِدٌ، أَيْ دَلَالَةٌ وَاحِدَةٌ، وَمَرْجِعُ الْقَوْلِ فِي هَذَا السِّيَاقِ الْقَوْلُ الْآتِي: إِنَّنَا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ نَجْعَلُ لِكُلِّ لَفْظٍ اسْتِعْمَالَهُ الْخَاصَّ بِهِ، وَأَنَّ الْفَتْحَ خِلَافَ الْإِغْلَاقِ، فَحَقُّهُ أَنْ يَتَنَاوَلَ شَيْئًا هُوَ فِي حُكْمِ الْمُغْلَقِ وَالْمَسْدُودِ، وَلَيْسَ السَّيْفُ بِمَسْدُودٍ، وَأَقْصَى أَحْوَالِهِ أَنْ يَكُونَ كَوْنُهُ فِي الْغَمْدِ بِمَنْزِلَةِ كَوْنِ الثُّوبِ فِي الْعَكْمِ، وَالذَّرْهَمِ فِي الْكَيْسِ، وَ الْمَتَاعِ فِي الصُّنْدُوقِ"¹⁴. يستفاد منه، أن الفتح له مواضعه في اللفظ والإغلاق كذلك،

10 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 249

11 - الجرجاني عبد القاهر، الأسرار، ص 26،

12 - المصدر نفسه، ص 26

13 - المصدر نفسه، ص 26

14 - المصدر نفسه، ص 6

يقول "فلا يُمكنُ استِعمالُ اللَّفْظِ في غيرِ مَوْضِعِهِ إِلَّا إِذَا أُريدَ بِهِ صِنَاعَةٌ وَبَلَاغَةٌ تَصْويرِيَّةٌ وَهَذَا مِمَّا جَاءَ فِي اسْتِحْسَانِ اللَّفْظِ مِنْ دُونِ إِشْرَاكِ لِلْمَعْنَى، فَمِنْ الصُّوَرِ الْبَلَاغِيَّةِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ (التَّجْنِيسُ، السَّجْعُ) فَإِنَّ السَّامِعَ وَالْمُتَكَلِّمَ لَا يَجِدُ حُسْنًا، مَقْبُولًا، حَتَّى يَكُونَ الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي طَلَبَهُ وَاسْتَدْعَاهُ وَسَاقَ نَحْوُهُ"¹⁵، هذا حد قوله؛ ومن جوانب أخرى عضد دعواه بصور أخرى (التشبيه، الاستعارة، الكناية، المجاز، التمثيل).

وعلى هذا النحو ينتصر الجرجاني للمعنى في الأسرار والدلائل، معتبراً أن الألفاظ خدم للمعاني؛ ويقصد بها أن المعنى أساس البلاغة ومعيار فصاحة الكلام وسياسته المالكة حد تعبيره، ويجزم القول فيه: "فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين"¹⁶.

2-2-2 مزية الكلام في الدلائل:

إن مما هم بالجرجاني وهو يراجع مادة الأسرار قصد تجاوزها للبحث فيما هو إعجازي، المفارقة بين اللفظ والمعنى كونهما عمود الظواهر البلاغية واللغوية، وجوهر الكلام من حيث تألفهما أو تنافرها. ولأنك في الموضوعين عليك تأمل أن "الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تعزى المزية فيه إلى اللفظ وقسم يعزى فيه إلى النظم". والأمر كذلك، حيث إن الكلام من حيث فصاحته وحسن صياغته والتفاضل والتمايز فيه يرجع إلى فرعين اثنين، الأول "اللفظ"؛ أي أن الضرب من المزية والديباجة إنما يؤول إلى اللفظ، والثاني "النظم"¹⁷؛ إذ لا معنى دونه، والرتبة في البلاغة له وبه. ونزيد من القول تفصيلاً، فالقسم الأول (الكناية) و(الاستعارة) و(التمثيل الكائن على حد الاستعارة)، وكل ما كان فيه على الجملة اتساع وعدول باللفظ الظاهر، فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي، أوجب الفضل والمزية. ومثال ذلك: "هو كثير الرماد" = كان له موقع الحظ من القبول، الأصل: "هو كثير القرى والضيافة" = المعنى ظاهر وليس فيه من البلاغة ما يعزى إليه مزية الكلام.

"هو طويل النجاد" = كان له تأثير في النفس، الأصل: "هو طويل القامة" = المعنى بين ليس فيه ما يحمل النفس على التأثر.

وبيان هذا؛ أن معنى الجملة لا يعقل من اللفظ ذاته، بل من معنى اللفظ، فكأن تشبه الرجل بالأسد وتقول: هذا أسد، فليس القصد من اللفظ أنه أسد (لأنك رأيت رجلاً) بل مقصد الكلام الفصيح أنه رجل يشترك مع

¹⁵ المصدر، نفسه، ص. 11

¹⁶ - المصدر نفسه، ص 8

¹⁷ - المصدر نفسه، ص 429

الأسد في صفات هي القوة والشجاعة والمواجهة، وجملة الأمر ما فيه أنا قد ذكرنا في القسم الأول من الحجج ما لا يبقى معه لعاقل، إذ هو تأملها شك في بطلان ما تعلقوا به¹⁸.

أما عن القسم الثاني (المعتزلة ومن ذهب مذهبهم) فإنهم إن ظنوا أن سؤالهم الذي اغتروا به يتجه لهم فيه، كان أمرهم أعجب وكان جهلهم في ذلك أغرب. وذلك أن النظم كما بينا إنما هو توحي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه، والعمل بقوانينه وأصوله، وليست معاني النحو معاني ألفاظ، فيتصور أن يكون لها تفسير، على نقيض ذلك؛ بل هي مقتضيات (التقديم والتأخير، الحذف والذكر، الفصل والوصل...)، سيأتي تفصيلها في معرض الحديث عن النظم ومسائله.

ولن نستفيض في النظم لاعتبارات ذكرت، والأمر في قضية اللفظ والمعنى ومطائهما عند النقاد والبلاغيين القدماء والمحدثين منهم، هذا؛ قصد مقارنته والخروج بجملة من النتائج يرجع فيها حسن الكلام وصفحاته إلى مناسبة المقاصد للتراكيب ولأحوال المتكلمين.

والمتبصر في الكلام يلاحظ أن للكلام جانبين، جانب يعزى فيه إلى اللفظ، ولا تفاضل فيه بين الشعراء والخطباء والباحثين في المجال، ذلك أن تقول الكلام فتريد به ظاهره لا مضمرة؛ وجانب يعزى فيه إلى المعنى، أو معنى المعنى اصطلاحاً عن الجرجاني، وفيه يظهر المبدع والشاعر بلاغته وحسن صياغته مقصد التأثير في نفوس المتلقين، ويفاخر شاعر على آخر.

يقول الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز: "وَلَيْتَ شِعْرِي، كَيْفَ يُنْصَوِّرُ وَفُوعٌ قَصْدٍ مِنْكَ إِلَى مَعْنَى كَلِمَةٍ مِنْ دُونِ أَنْ تُرِيدَ تَغْلِيْقَهَا بِمَعْنَى كَلِمَةٍ أُخْرَى؟ وَمَعْنَى (الْقَصْدِ 1 إِلَى مَعْنَى الْكَلِمِ)، أَنْ تُعْلِمَ السَّامِعَ بِهَا شَيْئًا لَا يَعْلَمُهُ. وَمَعْلُومٌ أَنَّكَ، أَيُّهَا الْمُتَكَلِّمُ، لَسْتَ تَقْصِدُ أَنْ تُعْلِمَ السَّامِعَ مَعْنَى الْكَلِمِ الْمُفْرَدَةِ الَّتِي تُكَلِّمُهُ بِهَا، فَلَا تَقُولُ: خَرَجَ زَيْدٌ، لِتُعْلِمَهُ مَعْنَى خَرَجَ فِي اللُّغَةِ، وَمَعْنَى زَيْدٍ. كَيْفَ؟ وَمَحَالٌ أَنْ تُكَلِّمَهُ بِالْأَلْفَاظِ لَا يَعْرِفُ هُوَ مَعَانِيَهَا كَمَا تَعْرِفُ. وَلِهَذَا لَمْ يَكُنِ الْفِعْلُ وَحْدَهُ مِنْ دُونِ الْإِسْمِ، وَلَا الْإِسْمُ وَحْدَهُ مِنْ دُونِ اسْمٍ آخَرَ أَوْ فِعْلٍ، كَلَامًا. وَكُنْتُ لَوْ قُلْتُ: "تَخْرُجُ"، وَلَمْ تَأْتِ بِاسْمٍ، وَلَا قَدَّرْتَ فِيهِ صَمِيرَ الشَّيْءِ، أَوْ قُلْتُ: "زَيْدٌ"، وَلَمْ تَأْتِ بِفِعْلٍ وَلَا اسْمٍ آخَرَ وَلَمْ تُضْمِرْهُ فِي نَفْسِكَ، كَانَ ذَلِكَ وَصَوْنًا تُصَوِّتُهُ سَوَاءً، فَأَعْرِفُهُ"¹⁹، أن المراد قول كلام وإخراجه يكون للسامع والمتكلم اشتراك في الدراية بمعناه، ليس كأن تقول "خرج" دون إتمام المعنى، وزيادة اسم أو صفة للفعل تبين دلالاته يعرف بها السامع صحة اللفظ وسلامة المعنى. يؤكد النص على أن المتكلم لا يقصد عند استخدامه لجملة ما أن يعلم السامع المعاني اللغوية المجردة للكلمات المفردة. ويقدم مثال "خرج زيد" ليؤكد أن الهدف ليس تعليم معنى "خرج" أو "زيد" بشكل منفصل، ويستتكر إمكانية مخاطبة شخص بألفاظ لا يفهمها.

18 - الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص 452

19 - المصدر نفسه، ص 412

ويختتم النص بالاستنتاج بأن الكلمة المفردة (فعلاً أو اسماً) لا تعتبر كلاماً كاملاً ذا معنى وقصد بمفردها. الفعل يحتاج إلى فاعل (اسم أو ضمير مقدر)، والاسم يحتاج إلى فعل أو اسم آخر ليكتمل المعنى، وإلا فإن الكلمة المفردة تبقى مجرد صوت خالٍ من الدلالة المقصودة.

ولما كانت العلة لا تشفى ولا تنتهي إلى ثلج اليقين حتى يصل الباحث إلى مكن العلم ومنبعه، نصل بدورنا إلى قول ما قال الجرجاني من حيث استهجانته لألفاظ باعتبارها المسموع من الكلام والحروف المتتابعة في النطق، وفي ذلك ضرب في اللفظ ودفاع عن المعنى، ومصرح ذلك: "وجملة الأمر أن هاهنا كلاماً حسنه للفظ دون النظم، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ، وثالثاً قرى الحسن من الجهتين، ووجب له المزية بكلا الأمرين. والإشكال في هذا الثالث، والذي لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه، وتراك قد حفت فيه على النظم، فتركته وطمحت ببصرك إلى اللفظ، وقدرت في حسن كان به وباللفظ، أنه للفظ خاصة، وهذا هو الذي أردت حين قلت لك: إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته، ونعلم أن الناس في الألفاظ والمعاني فرق ومذاهب وأما الجمع بين الأمرين فهو خوف على ظلم طرف أو آخر، والمسلك السليم الوقوف على النظم الذي به تتباين الألفاظ والمعاني وأصولهما؛ والعلة في ذلك أن العنصر الجديد المتولد هنا هو العنصر الذي يقع في التفاعل بين التغيير الدلالي (اللفظي) والتغيير التركيبي (النظمي)، والجرجاني يضع أصبعه هنا على قضية جوهرية في الشعر، هي "التفاعل بين المكونات"، والتفاعل هو مزية شعر الفحول من الشعراء؛ في حين يركز المتوسطون والأقل كفاءة على عنصر واحد عن طريق التراكم"²⁰.

ننتهي مما تقدم إلى جملة الفصل في الموضوع؛ ذلك أن الجرجاني عمل على مصالحة معنى اللفظ على حساب ما فهمه المتأخرون، ثم انتقل إلى النظم ومقتضياته، مصرحاً بأن المزية في الكلام تعزى إلى المعنى دون اللفظ، يضاف إلى ذلك؛ أن للمعاني صور، يقول: "وَكَذَلِكَ إِذَا جَعَلُوا الْمَعْنَى يَتَصَوَّرُ مِنْ أَجْلِ اللَّفْظِ بِصُورَةٍ، وَيَبْدُو فِي هَيْئَةٍ، وَيَتَشَكَّلُ بِشَكْلِ يَرْجِعُ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى الدَّلَالَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَلَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهُ حَيْثُ الْكَلَامُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَحَيْثُ لَا يَكُونُ كِنَايَةً 1 وَلَا تَمَثِيلًا وَلَا اسْتِعَارَةً، وَلَا اسْتِعَانَةً فِي الْجُمْلَةِ بِمَعْنَى عَلَى مَعْنَى، وَتَكُونُ الدَّلَالَةُ عَلَى الْغَرَضِ مِنْ مُجَرَّدِ اللَّفْظِ، فَلَوْ أَنَّ قَائِلًا قَالَ: «رَأَيْتُ الْأَسَدَ»، وَقَالَ آخَرُ: «لَقِيتُ اللَّيْثَ»، لَمْ يَجْزُ أَنْ يُقَالَ فِي الثَّانِي أَنَّهُ صَوَّرَ الْمَعْنَى فِي غَيْرِ صُورَتِهِ الْأُولَى، وَلَا أَنْ يُقَالَ أَبْرَزَهُ فِي مَعْرِضٍ سِوَى مَعْرِضِهِ، وَلَا شَيْئًا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ. وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّ صُورَ الْمَعْنَى لَا تَتَغَيَّرُ بِنَقْلِهَا مِنْ لَفْظٍ إِلَى لَفْظٍ، حَتَّى يَكُونَ هُنَاكَ اتِّسَاعٌ وَمَجَازٌ، وَحَتَّى لَا يُرَادَ مِنَ الْأَلْفَافِظِ ظَوَاهِرُ مَا وَضِعَتْ لَهُ فِي اللَّغَةِ، وَلَكِنْ يُشَارُ بِمَعَانِيهَا إِلَى مَعَانٍ أُخَرَ"²¹.

20 - العمري البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 350

21 - المرجع نفسه، ص 265.

والحاصل مما قررناه في هذا السياق، أن قضية اللفظ والمعنى ما هي إلا مسلك سلكه الإمام عبد القاهر الجرجاني ليصل إلى النظم، والأمر عنده يعود إلى علتين، أولهما مصالحة اللفظ عند الجاحظ، ثانيهما التأسيس لبلاغة معنوية مدارها على المعنى. وهذا الشيء يأخذ منا مأخذه، وختامه عندنا قولان، هما:

إن الهدف من التصريح بأولوية المعنى في الكلام هي أن "المزية التي من أجلها استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح هي في المعنى دون اللفظ"²².

إشارته الجازمة إلى نظرية النظم (توخي معاني النحو)، التي لأجلها ألف الجرجاني كتابه دلائل الإعجاز؛ حيث إن مناسبة الكلام لمقاصد المتكلمين ولأحوال السامعين فيه من نظم الكلام ومقتضياته ما يؤسس لبلاغة معنوية بحتة وذلك من قوله: "واعلم أنه إذا نظر ناظر في شأن المعاني والألفاظ إلى حال السامع، فإذا رأى المعاني تقع في نفسه من بعد وقوع الألفاظ ظن ذلك أن المعاني تتبع للألفاظ في ترتيبها"، هذا ما يكشف بجلاء أن الإمام الجرجاني كان على وعي تام بأهمية المقام في إنتاج الكلام تبعاً لمقتضيات نظمية وأخرى بلاغية.

3-2-2 من الأسرار إلى الدلائل:

انطلق عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز من دفاعه وحجابه عن الشعر العربي، الذي هو أحد رموز الثقافة العربية، ومصدر من أهم مصادر الاحتجاج، وَقَدْ أَرَادَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ التَّنْوِيَةَ بِبَلَاغَةِ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ وَالْكَشْفَ عَنْ وَجْهِهِ إِعْجَازَهُ انْطِلَاقًا مِنَ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ بِاعْتِبَارِهِ مُعْطًى يُفَسِّرُ مَا يَرِدُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مُرَادِفَاتٍ غَرِيبَةٍ وَأَسَالِيْبٍ وَصُورٍ²³، فَقَدْ جَاءَتْ نَظْرِيَّةُ الْجُرْجَانِيِّ نَظْرًا لِمَا سَادَ عَصْرُهُ مِنَ الْإِسْرَافِ بِالسَّجْعِ وَالْإِهْتِمَامِ بِاللَّفْظِ دُونَ الْمَعْنَى، بِالإِضَافَةِ إِلَى الْإِعْرَاضِ مِنْ جِهَةٍ عَنِ الشَّعْرِ وَالنَّحْوِ²⁴.

أولاً: مزية الكلام - بين الكلام الغريب المعجب وبين الكلام المناسب لمقاصد المخاطب وأحوال السامع -

نحا الجرجاني في أسرار البلاغة منحى متجاوباً مع التصور الأشعري، ومعارضاً للتصور المعتزلي، فَقَدْ نَزَعَ الْمَزِيَّةَ مِنَ الْأَصْوَاتِ (الْأَلْفَافِ)، وَلَمْ يُقَدِّمْ تَفْسِيرًا تَطْبِيقِيًّا لِمُجْمَلِ الْإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، إِنَّمَا أَثَارَ الْعَدِيدَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ الْمُخْرِجَةِ حِينَ طَرَحَ قَضِيَّةَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ طَرَحًا أَخْلَاقِيًّا، وَأَخْرَجَ الْإِسْتِعَارَةَ مِنَ النَّحْيِ، بَلْ طَرَحَ إِشْكَالًا مَنَهْجِيًّا اسْتَدْرَكَهُ الْجُرْجَانِيُّ فِي الدَّلَائِلِ حِينَ سَحَبَ الْإِسْتِعَارَةَ مِنَ الْإِعْجَازِ لِأَنَّهَا قَلِيلَةٌ فِي الْخِطَابِ، وَكَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ الْبَحْثُ عَنْ بَلَاغَةٍ تَسْتَجِيبُ لِطَبِيعَةِ الْأَسْئَلَةِ الْإِعْجَازِيَّةِ²⁵.

22 - المرجع، نفسه، ص 400

23 - ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص 25.

24 - شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، ص، ص 125.

25 - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا، ص 152 153

إِنَّ انْتِقَالَ الْجُرْجَانِيِّ مِنْ كِتَابِهِ "أَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ" إِلَى "دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ" لَمْ يَكُنْ تَخَلُّيًا عَنِ النَّصُورِ الْأَوَّلِ أَوْ قَلْبًا لِلِاشْكَالِ، بَلْ هُوَ مُجَرَّدُ تَعْدِيلَاتٍ وَتَكْمِلَةٍ لِمَشْرُوعِهِ السَّابِقِ عَبْرَ إِضَافَةِ الْكِنَايَةِ، وَعَبْرَ رِبْطِ مَزِيَّةِ الْكَلَامِ بِمُقْتَضَيَاتِ النَّظْمِ النَّحْوِيِّ وَجَعَلَهَا تَابِعَةً لَهُ، هُنَا لَمْ تَعُدِ الْقِيَمَةُ مُوجُودَةً فِي دَرَجَةِ تَنَامِي الْغَرَابَةِ بِقَدْرِ اتِّجَاهِهَا لِمُنَاسَبَةِ الْكَلَامِ لِمَقَاصِدِ الْمُتَكَلِّمِ وَأَحْوَالِ السَّامِعِ. فَالْجُرْجَانِيُّ فِي "الْأَسْرَارِ" اهْتَمَّ بِبَلَاغَةِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ دُونَ الْعَوَصِ فِي أَعْمَاقِهِ الْإِعْجَازِيَّةِ، وَالْأَمْرُ لَا يَسْتَقِيمُ مَعَ دِرَاسَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِأَنَّهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُنْزَرَةٌ عَنِ التَّحْرِيفِ وَالزَّلَلِ، لِذَلِكَ جَعَلَ فِي "الدَّلَائِلِ" بَحْثَهُ عَنْ مَعَايِيرِ الشَّعْرِ خَادِمًا لِإِعْجَازِيَّةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.²⁶

"الشعر معجزة العرب" مقابل "القرآن معجزة الله عز وجل" = تفوق القرآن الكريم.

وباستطاعة القارئ المتميز للكتابين "الدلائل" و"الأسرار" استنتاج وحدة موضوعهما رغم اختلاف الهدف، وجوهر المنطلق الموحد اعتبار البلاغة في المعنى وإن اختلف المقصود من المعنى.

هل هو المعنى الغريب المعجب كما جاء في "الأسرار"، أم هو المعنى المناسب للمقاصد في "الدلائل". وهنا ظهر اختلاف في المادة والمدخل:

— الغرابة الشعرية تستمد أسيلتها من مفاهيم خطابية، تجد مشروعيتها في طبيعة الشعر القديم، ومن الحوافز الأخلاقية المترتبة عن استحضر النص المقدس (الصدق والكذب)، وسنحاول تقديم خطاطة كبرى تشمل التصور الذي انتهى إليه عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

المحور الثالث: مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني

النظم لغة: تتفق مختلف المعاجم على تعريف النظم، وأشمل هذه التعريفات ما جاء في قول الفيروز آبادي (النَّظْمُ: التَّأْلِيفُ، وَضَمُّ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، وَالْمَنْظُومُ...وَنَظَمَ اللَّؤْلُؤُ يُنْظِمُهُ نَظْمًا وَنِظَامًا وَنَظْمُهُ: أَلْفَهُ، وَجَمَعَهُ فِي سِلْكٍ، فَانْتَضَمَ وَتَنَظَّمَ...وَالنَّظَامُ: كُلُّ خَيْطٍ يُنْظَمُ بِهِ لُؤْلُؤٌ وَنَحْوُهُ)²⁷.

أما عند عبد القاهر الجرجاني فالنظم قائم على معنيين اثنين:

أ- توخي معاني النحو:

"النَّظْمُ هُوَ تَوْخِي مَعَانِي النَّحْوِ وَأَحْكَامِهِ فِيمَا بَيْنَ الْكَلِمِ مِنْ عِلَاقَاتٍ حَيْثُ يَقُولُ: "النَّظْمُ - كَمَا بَيَّنَّا - إِنَّمَا هُوَ تَوْخِي مَعَانِي النَّحْوِ وَأَحْكَامِهِ وَفُرُوقِهِ وَوُجُوهِهِ، وَالْعَمَلُ بِقَوَانِينِهِ وَأُصُولِهِ، وَلَيْسَتْ مَعَانِي النَّحْوِ مَعَانِي أَلْفَاظٍ

²⁶ - المرجع نفسه، ص153.

²⁷ - "الفيروز الأبادي: القاموس المحيط"، ص: 1162

فَيَتَصَوَّرُ أَنَّ يَكُونُ لَهَا تَفْسِيرٌ²⁸. وهذا التعريف الشامل يوضح مدى العلاقة الوطيدة بين علم النحو وعلم المعاني في تحديد نظرية النظم.

ب- التعالق بين الجمل:

النظم مرتبط بالتعليق والتركيب والتأليف، وليس بالألفاظ وحدها منفردة، وبهذا؛ المزية لا ترجع للفظ وحده، وقد أشار الجرجاني إلى ضرورة التعالق بين الجمل لحصول الإفادة قبل الانتقال إلى الدلائل وهو يقول: "الْأَلْفَاظُ لَا تُقِيدُ حَتَّى تُؤَلَّفَ ضَرْبًا خَاصًّا مِنَ التَّأْلِيفِ، وَيُعَمَدَ بِهَا إِلَى وَجْهِ دُونَ وَجْهِ مِنَ التَّرْتِيبِ وَالتَّرْكِيبِ"²⁹.

أما في الدلائل فقد أكد الجرجاني على أهمية التعالق بين الجمل لا الألفاظ بقوله: "وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا رَجَعْتَ إِلَى نَفْسِكَ عَلِمْتَ عِلْمًا لَا يَغْتَرِضُهُ الشَّكُّ، أَنَّ لَا نَظْمَ فِي الْكَلِمِ وَلَا تَرْتِيبَ، حَتَّى يُعْلَقَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَيُبْنَى بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَتُجْعَلَ هَذِهِ بِسَبَبٍ مِنْ تِلْكَ، هَذَا مَا لَا يَجْهَلُهُ عَاقِلٌ وَلَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ"³⁰.

فَالْكَلِمَةُ الْمُفْرَدَةُ إِذَا لَمْ يَتِمَّ رِبْطُهَا بِغَيْرِهَا مِنَ الْكَلِمَاتِ صِرَاحَةً أَوْ تَقْدِيرًا، فَلَا تَزِيدُ عَنْ كَوْنِهَا صَوْتًا نُصَوِّتُ بِهِ، إِذْ لَا فَائِدَةَ خَبَرِيَّةَ وَلَا بَلَاغِيَّةَ وَلَا سِمَةَ نَحْوِيَّةَ، وَإِنَّمَا تَظْهَرُ فِيهَا الْفَائِدَةُ الْإِخْبَارِيَّةُ وَالصِّفَاتُ النَّحْوِيَّةُ وَالْإِعْرَابِيَّةُ عِنْدَ دُخُولِهَا فِي الْجُمْلَةِ وَتَأْلِيفِ الْكَلَامِ"³¹.

والملاحظ أن النظم عند الجرجاني ينصرف إلى نوعين من النظم، سيتم توضيحهما في المحور الرابع.

المحور الرابع: المقصود بالمناسبة التداولية: ومقتضيات النظم

هو مصطلح وظفه الأستاذ محمد العمري للدلالة على الانتقال من الغرابة إلى النظم، باعتباره مراعاة لمقصد المتكلم وأحوال السامع بشكل تجمع فيه الغرابة من مقتضيات النظم. مهما بلغت درجة الغرابة في الكلام، فالنظم هو ما يجعل فيه المزية. وَقَدْ عَبَّرَ عَنْهُ الْأُسْتَاذُ الْعُمَرِيُّ بِمُصْطَلَحٍ آخَرَ سَمَّاهُ "الْمُنَاسَبَةَ النَّظْمِيَّةَ"، فَتَارَةً يَسْتَخْدِمُ مُصْطَلَحَ "الْمُنَاسَبَةِ التَّدَاوُلِيَّةِ" وَتَارَةً أُخْرَى يَسْتَخْدِمُ مُصْطَلَحَ "الْمُنَاسَبَةِ النَّظْمِيَّةِ" وَكِلَاهُمَا وَاحِدٌ فِي مَعْنَاهُ³².

بعد التحول من الأسرار إلى الدلائل، تحولت الغرابة من مزية للكلام إلى مقتضى من مقتضيات النظم وخادما له، وأضاف الجرجاني مقتضيات أخرى تخدم النظم، منها: "التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ: وَهُوَ بَابٌ كَثِيرُ الْفَوَائِدِ، جَمُّ

²⁸ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص452

²⁹ - الجرجاني: اسرار البلاغة في علم البيان، ص1.

³⁰ - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص45.

³¹ شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني (في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية)، ص127.

³² - العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص152/170

الْمَحَاسِنِ، بَعِيدُ الْغَايَةِ، [1] وَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ: تَقْدِيمٌ عَلَى نِيَّةِ التَّأخير: وأيضاً يقول "كَخَبَرِ الْمُبْتَدَأُ فِي قَوْلِكَ: "مُنْطَلِقٌ رَيْدٌ"، فَمَعْلُومٌ أَنَّ "مُنْطَلِقٌ" لَمْ تَخْرُجْ بِالتَّقْدِيمِ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ كَوْنِهَا خَبَرِ الْمُبْتَدَأِ وَمَرْفُوعَةً بِذَلِكَ. تَقْدِيمٌ لَا عَلَى نِيَّةِ التَّأخير"³³: وهو أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم، وتجعله باباً غير بابيه، وإعراباً غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل منهما أن يكون مبتدأ والآخر خبراً له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا لعلّة بيانية ولفضل بلاغي، ومن أمثلة ذلك "الاستفهام بالهمزة" فإن موضع الكلام إذا قلت: "أفعلت؟" فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده، أما إذا قلت: "أأنت فعلت؟" فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل، وهنا يتجلى دور النحو والنظم في تحديد الدلالة، وأن بينهما رباط قوي لا ينفصم.

التقديم للعناية والاهتمام: فوضح تأثر الجرجاني بالعالم النحوي سيبويه (ت180هـ)، مما يدل على أن الدراسة الجرجانية لإعجاز القرآن لم تكن بلاغية محضة، بل اجتمعت فيها كل أمهات العلوم، نحواً وبلاغاً، يقول في الدلائل: "واعلم أننا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل، غير العناية والاهتمام. قال صاحب "الكتاب" وهو يذكر الفاعل والمفعول: "كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ الَّذِي بَيَّأَهُ أَهْمُ لَهُمْ وَهُمْ بَيَّأَنِهِ أَعْنَى، وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهْمُهُمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ". وَلَمْ يَذْكُرْ فِي ذَلِكَ مِثَالًا"³⁴.

الحذف والذكر: أَكَّدَ الْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الْحَذْفِ؛ وَمَا يُكْسِبُهُ لِلْعَةِ مِنْ مَتَانَةٍ، وَلِلْكَالَامِ مِنْ قُوَّةٍ، فَتَنْبَهَرُ بِهِ النَّفْسُ لِسِحْرِهِ الْعَجِيبِ، فَيَأْسِرُهَا كَأَنَّهُ سِحْرٌ، وَمَرَدُّ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ تَرَكَ الْإِفْصَاحَ هُوَ أَبْلَغُ إِفْصَاحٍ، وَالْإِشَارَةُ تُغْنِي عَنِ الْعِبَارَةِ؛ بَلْ إِنَّ السُّكُوتَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَبْلَغُ جَوَابًا وَأَجْمَلُ بَيَانًا"³⁵.

تحدث الجرجاني عن ظاهرة الحذف، في كتابه دلائل الإعجاز، حيث عقد باباً سماه باب الحذف، مستحضراً فيه مواضع الجمال والروعة في حذف المبتدأ والفعل والمفعول به خصوصاً، أما في أسرار البلاغة فقد تطرّق للحذف ومتى يُعَدُّ من المجاز.

1-4 الحذف في دلائل الإعجاز:

أ- حذف المبتدأ: ذكر الجرجاني عدة مواضع يحذف فيها المبتدأ منها:

في الشعر: حيث يحذف الضمير أو اسم الإشارة كقول الشاعر:

اعْتَادَ قَلْبَكَ مِنْ لَيْلَى عَوَائِدُهُ ... وَهَاجَ أَهْوَاكَ الْمَكْنُونَةَ الطَّلَلُ

³³ -المرجع نفسه، ص، 160

³⁴ - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص107

³⁵ - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص، 106

رَبْعٌ قَوَاءٌ أَذَاعَ الْمُعْصِرَاتُ بِهِ ... وَكُلُّ حَيْرَانَ جَارٍ مَأْوُهُ حَضِلٌ (البسيط)

حيث "ربع" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا أو هو.

يحذف المبتدأ في القطع والاستئناف كقول الشاعر:

هم حُلُوا من الشَّرَفِ المَعْلَى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

بناء مكارم وأساءة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء (الوافر)

"من الشرف المعلى" أي الشرف الذي هو كالقدح المعلى لأنه أشرف الأقداح وأكثرها حظوظا وأكثرها انصباء، وجعل هذا مثلاً لأرفع المراتب.

ب- حذف الفعل:

حيث يحذف الفعل الذي نصب اسماً ظاهراً، ومثله نصب "ديار" على إضمار فعل، فكأنه قال: انكر ديار مية.

ديار مَيَّةٌ إِذْ مَيَّيْتُ تَسَاعَفْنَا ... وَلَا يَرَى مِثْلَهَا عَجْمٌ وَلَا عَرَبٌ (البسيط)

ج- حذف المفعول به:

نال حذف المفعول به نصيباً وافرًا من تحليل الجرجاني، مشيرًا إلى أن حال الفعل مع المفعول الذي يتعدى إليه حاله مع الفاعل، ويضيف الجرجاني أن حذف المفعول ليس لنتائجه نهاية؛ لأنه طريق إلى ضروب من الصنعة، وإلى لطائف لا تحصى.

د- الفصل والوصل:

عرف الجرجاني الفصل والوصل، ويبين أهميتهما بقوله:

الْوَصْلُ فِي الْجُمْلِ عَطْفٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَالْفَصْلُ تَرْكُ الْعَطْفِ فِيهَا وَالْمَجِيءُ بِهَا مَنْشُورَةٌ تُسَنَّفُ وَاحِدَةً مِنْهَا بَعْدَ الْأُخْرَى. [1] ثُمَّ يُكْمَلُ قَائِلًا: "إِنَّ مَعْرِفَةَ الْفَصْلِ مِنَ الْوَصْلِ مِمَّا لَا يَتَأْتَى لِتَمَامِ الصَّوَابِ فِيهِ إِلَّا لِلْأَعْرَابِ الْخُلَّصِ وَإِلَّا قَوْمٌ طَبِعُوا عَلَى الْبَلَاغَةِ، وَأَوْتُوا مِنَ الْمَعْرِفَةِ فِي ذَوْقِ الْكَلَامِ هُمْ بِهَا أَفْرَادٌ"³⁶. وَقَالَ

³⁶ - الجرجاني "دلائل الاعجاز"، ص 148.

أَيْضًا: "... إَعْلَمَ أَنَّهُ مَا مِنْ عِلْمٍ مِنْ عُلُومِ الْبَلَاغَةِ أَنْتَ تَقُولُ فِيهِ: "إِنَّهُ خَفِيَ غَامِضٌ، وَدَقِيقٌ صَعْبٌ" إِلَّا وَعِلْمٌ هَذَا النَّبَابِ أَغْمَضُ وَأَخْفَى وَأَدْقُ وَأَصْعَبُ"³⁷.

أدوات الفصل عند الجرجاني:

"أ" ضمير الفصل: في مثل: "وأرضى بها من بحر آخر إنه ... هو الري أن ترضى النفوس ثماها

"ب" الفصل بالجملة المعترضة: في مثل قول الشاعر: وإني "على إشفاق عيني من العدا" ... لتجمع مني نظرة ثم أطرق

2-4 البعد التداولي في كتاب دلائل الإعجاز:

يمكن القول إن عبد القاهر الجرجاني نجح في الدمج بين المقاربتين النحوية والبلاغية، كما استطاع إدخال مجالات جديدة لهذين الحقلين كالمجال التداولي، ويتسم عمله بمجموعة من المميزات، أبرزها الجدية والطرافة والتنظيم والبناء المحكم، فقد تبنى منهجا صارما وظف فيه الملاحظة والشرح والتفسير والتحليل، وزاوجها بنظريات العلم التداولي التي تراعي علاقة المتكلم بالمخاطب مما يجعلها دراسة علمية بامتياز.

فبتأملنا لما جاء به الجرجاني في الدلائل نلمح مواضع عدة يسعى فيها لاستمالة القارئ إلى تبني دعواه، ويحاول مشاركته في صلب تصوره، ومنه قوله: "إِنْ قَالَ قِيلَ لَهُ"، "فَإِنْ قَالُوا قِيلَ لَهُمْ"، "وَقَالُوا.... قُلْنَا لَهُمْ"³⁸، ويندرج هذا النوع من الأساليب والأنماط كما حدده عبد الهادي ظافر الشهري ضمن الحاجج التقويمي، الذي يهدف من خلاله الجرجاني لإثبات صحة دعوته، مستندا على قدرة المستدل في أن يجرد من نفسه ذات ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه³⁹. كما يود إقناع المخاطب بصواب رأيه. ومن الأساليب التي وظفها لهذا الشأن، صيغة الأمر "اعلم" المتكررة دائما بغرض استمالة القارئ وتهيئته لما هو قادم، وقوله: "وإذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك..."⁴⁰ وتظهر بذلك الأبعاد التداولية التي تبناها الجرجاني في طرحه.

³⁷ -المصدر، نفسه،، ص231

³⁸ - الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص، 43/40.

³⁹ -ظافر الشهري: استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص470/473.

⁴⁰ - الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز ، ص 50

خاتمة

لقد انطلق الجرجاني في أسرار البلاغة من التمييز بين اللفظ والمعنى، الذي شكل مدخلا سيصل بمقتضاه إلى مبتغاه المتعلق بالمعاني. فمن هذه النقطة يتضح أن الجرجاني سعى منذ بداية مشروعه البلاغي عن البنيات والوظائف المتنوعة والمعجبة للمعاني، هكذا جلي كونه خصص كتاب الأسرار للحديث عن أسباب تفضل الكلام وتعدد معانيه، حيث شكل عنصر العدول الدلالي المحقق عبر الصور البيانية مكونا مهما للتمييز بين أصناف القول، ولقد اقترن مفهوم الغرابة في منجز الجرجاني بالغموض، وهو كما قيل نقيض الوضوح ومنازع له مقابل العدول في الدلائل الذي هو مصطلح تراثي مقابل للانزياح في الدراسات الحديثة، واكتسب أهمية عند عبد القاهر الجرجاني.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق ابراهيم السامري، مكتبة المنارة الزرقاء، ط2، 1985.
- 2- الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة في علم البيان، قراءه محمود محمد شاكر الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1991.
- 3- الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: أبو فهد محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- 4- الجاحظ، عمرو أبي عمان: البيان والتبيين، الجزء 1، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون.
- 5- الجاحظ، أبي عثمان، الحيوان (الكتاب الأول)، الجزء الثالث، ط2، مطبعة مصطفى البابلي وأولاده بمصر، ص 131/132.
- 6- العمري، محمد، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، افريقيا الشرق، بيروت- لبنان ط 1، 1999.
- 7- مخيمر فؤاد علي، فلسفة عبد القاهر الجرجاني النحوية في دلائل الإعجاز، ط 1983، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- 8- شامية أحمد: خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1995.
- 9- الفيروز بادي مجد الدين: "القاموس المحيط" ت (817هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، نشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، الطبعة: الثامنة (1426 = 2005م).
- 8- ظافر الشهري عبد الهادي: استراتيجية الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2004.